سورة آل عمران

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [آل عمران: ٢١]

إن الذين أنكروا كل دين حتى مجيء الإسلام، أو قبلوا بعض أمور الدين وأنكروا الله، وأنكروا الآيات الدالة على الله تعالى وعلى وحدانيته فضلوا وأضلوا وصفوا هنا بأنهم "يكفرون بآيات الله"، كما وصف الذين شقوا عصا الطاعة على الأنبياء الذين أرسلوا وسيلة نجاة لهم وأنزلت الكتب عليهم بأنهم "يقتلون الأنبياء بغير حق". ووصف الذين يعادون الذين يسعون لإقامة الحق والعدالة بين الناس، ويحاولون إزالتهم وُصفوا بصفة ذميمة هي أنهم "يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس". والعاقبة التي تنتظر كل هؤلاء عاقبة واحدة وهي العذاب الأليم.

وأمثال هؤلاء لم يستطيعوا البقاء في الدنيا والخلود فيها ولم يستطيعوا منع ارتحالهم إلى دار أخرى ولم يتهيئوا لها، وبتعبير بديع الزمان النورسي لم يستطيعوا قتل الموت وإزالته، ولم يستطيعوا سد باب القبر، لذا يتعذب هؤلاء عذاب الموت قبل الموت، فقد انتهت آجالهم في الدنيا وضحوا بآخرتهم، فخسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

ولو دققنا هنا فذلكة الآية لرأينا أننا أمام أسلوب لم نعهده. أجل! فلم نعتد كلاماً حول "البشارة بعذاب أليم". لأن البشارة تستعمل عند الحديث

عن شيء جميل ومفرح، وعن شيء يغرق الإنسان في السعادة، ولا تُستعمل عند الحديث عن الأشياء القبيحة والمحزنة. فلا يقال مثلاً لمن توفي والده "هنيئاً لك بموت والدك!"، ولمن أفلس "هنيئاً لك فقد أفلست!". لذا يجب هنا البحث عن حكمة أخرى وهي -والله أعلم- الاستهزاء بالكفار والتهكم منهم. ومثل هؤلاء الذين أصبحت قلوبهم غلفا تجاه الإيمان وتجاه القرآن، وامتلأت نفوسهم حقداً وغيظاً تجاههما لا شك أنـــهم سينفجرون من الغيظ والغضب عندما يسمعون مثل هذه الآيات.

وإذا قمنا بتقييم سياق الآية يمكن ذكر النكتة الآتية: إن الله تعالى فتح أمام هؤلاء طرق الهداية والإيمان وأرسل لهم الأنبياء، وأرسل فيما بعد ورثة الأنبياء الذين يأمرون بالقسط بين الناس، ولكنهم أصروا على إنكار كل هذه النعم وعلى الجحود بـــها. أي لم يؤمنوا وقاموا بقتل الأنبياء وبقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس. لذا فذكر ﴿وَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (آل عمران: ٢١) هو من أجل بيان سوء عاقبة هؤلاء من جهة وإنذارهم ثانية بأنهم أضاعوا فرصة ذهبية وبشارة حقيقية.

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾

[آل عمران: ٤٠]

قال زكريا هذا مع أنه كان قد دعا ربه من قبل ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ (آل عمران: ٣٨). وعندما تلقى بشرى قبول دعوته قال بمزيج من الفرحة والدهشة ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾. ومع أنه قد تبدو هناك في النظرة الأولى مفارقة بين الحالين، إلا أن مثل هذه المفارقة غير موجودة. ذلك لأن زكريا عليه السلام عندما توجه إلى ربه بكل كيانه بالدعاء كان في حالة روحية عميقة، لذا لم تخطر على باله دائرة الأسباب، فتجاوز الأسباب كان يقتضيه مقام الدعاء. كما كان الدعاء يتناول أمرا أخرويا متعلقا بميراث منتظر للنبوة. ولكنه عندما عاد إلى عالم اليقظة -إن جاز التعبير- ودخل إلى عالم الأسباب وتطلع إلى المسألة من خلاله فرح وذهل فقال ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾.

هناك أمر آخر مهم يجب الإشارة إليه في هذا المقام وهو أن العديد من كتب التفاسير التقليدية يفسر قول زكريا عليه السلام ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾ بأنه صيغة تعجب، بينما أرى أنه صيغة تقدير مع تحير من القدرة الإلهية. فإن علمنا بأن أعلى مقام في مراتب الولاية عند ابن عربي هو مقام الدهشة، أدركنا بأن هذه الحيرة والتعجب لا يكون منافيا لمقام النبوة. أجل! قام نبي بلغ من الكبر عتياً وامرأته عاقر بإبداء دهشة ممزوجة بمعرفته النبوية بالله تعالى، ثم إظهار مشاعر التقدير والإعجاب والمنة للقدرة الإلهية، والتعبير عن هذه الدهشة والتقدير والمنة بقوالب من الألفاظ المناسبة لمشاعرنا وعواطفنا.

بالنسبة إلينا فليس من السنن الإلهية حمل امرأة بلغت سن اليأس وانقطعت عنها العادة الشهرية فأصبحت عاقراً. لذا فظهور مثل هذه الحادثة غير

الطبيعية وخلاف العادة الجارية كان بمثابة إشارة تنبيه ممزوجة بالدهشة في روح نبي يقدر الآلاء الإلهية حق التقدير... شعور تقدير يتقدم على شعور الفرح. وهذا شيء طبيعي ويوافق منصب النبوة.

ثم كان التعقيب بآية ﴿كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (آل عمران: ٤٠) للإيماء بأن حوادث عدة متعلقة بمريم وعيسى عليهما السلام ستقع وستظهر. أي أنه إلى جانب الحوادث الواقعة حسب دائرة الأسباب والمسببات وحسب السنن الإلهية المطردة تقع حوادث لا ترتبط بالأسباب المنظورة، لكي تتم الإشارة إلى المشيئة الإلهية الحرة على الدوام.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]

اتخاذ موقف لين تجاه أهل الكتاب أمر من أوامر القرآن. ليس أهل الكتاب فحسب بل أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يقول كلاما لينا لفرعون ﴿فَقُولا لَهُ قَولاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَو يَخْشَى﴾ (طه: ٤٤). لذا فلا مكان أبداً في الإسلام للكلام الخشن أو اللوم العنيف للناس في الدعوة إلى الله.

والآية أعلاه أنموذج بليغ للكلام اللين القريب من القلوب، والكلام الجذاب في الدعوة. فإن تخيلنا الإسلام قلعة محاطة بأسوار تمثل حدود الله، فلا شك أن هناك أبواباً عديدة لها وهناك طرق كثيرة بعدد الخلق تؤمن الوصول إلى هذه الأبواب. ويقوم الإسلام بأسلوبه الخاص باحتضان الناس في أي طريق من هذه الطرق وفي أي نقطة من نقاطها لكي ييسر لهم الدخول من أحد هذه الأبواب. إن عدم وضوح هذا التدرج، أو عدم إدراكه قاد البعض في السابق ولا يزال يقودهم إلى أخطاء معلومة.

وهذه الآية تستقبل أهل الكتاب في إحدى نقاط هذه الطرق وتقترب منهم بوجه بشوش وكلام حلو جميل وتقول لهم: "تعالوا إليّ!... هلموا إليّ!" وعندما تخاطبهم هكذا تقول لهم: "إن ما أدعوكم إليه ليس جديداً عليكم، وليس شيئاً تجهلونه... بل هو مما عرفتموه وأنستم به قبلنا، ولكن يجوز أنكم نسيتموه، أو تذكرتموه بشكل خاطئ". ومثل هذه الدعوة تؤسس جسراً بيننا وبين أهل الكتاب، وتلمس نفوسهم من جانب يأنسون به. وهذا الأسلوب في الدعوة إلى الإسلام مهم جداً، وتستطيعون أن تطلقوا عليه التعبير الشائع في هذه الأيام وهو "أسلوب الحوار". أجل... إن دعوة

الإسلام أهل الكتاب إلى نقطة مألوفة لديهم يمكن تلخيصها في كلمة واحدة مختصرة، لأن القرآن طلب منهم شيئا واحدا فقط، وهو اجتياز هذا الجسر المشاهَد أمام الأنظار والوصول إلى هذا الباب. فإذا وضعنا كل شيء جانباً فإن كلمة "سواء" وحدها تعبر عن هذا المفهوم الدقيق للين وسعة الصدر والرغبة في تشييد الجسور بيننا وبينهم. فما هي خواص وصفات هذا الجسر؟

هنا نرى أن القرآن بدلاً من الحديث عن القيام بتعريف المثبت يقوم بعرض المنفي أمام الأنظار فيدخل إلى الموضوع بالشكل الآتي: أولاً إن أهل الكتاب كانوا يعرفون الله في إطارهم الخاص. غير أنه بعد مرور عدة عصور تراكم الغبار على هذه المعرفة التي فقدت نضارتها وجدتها، لذا كان من الضروري القيام بعملية تنظيف وتطهير. وعندما يتم هذا تظهر الحقائق واضحة أمام جميع الأنظار. ويمكن رؤية عملية التنظيف هذه من جملة ﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ﴾. أي إن الإسلام يبدأ كل عمل بعملية تنظيف وتطهير فيخلص الأذهان من الأفكار الخاطئة ومن الانحرافات ويخلص الأنظار من الزيغ. وعندما يذكر "إلا الله" فهو يقوم قبل تعريف الشيء الإيجابي بعملية فكرية وبعملية عقلية، بل ربما بعملية تجديدية. لذا فهذه الآية بدلاً من القول "لنعمل كذا وكذا" تقول "دعونا لا نعمل كذا".

أجل! فبعض أهل الكتاب انحرفوا بمرور الزمن إلى الشرك، فبدأوا يسندون لله تعالى أبناء وبنات مثلهم مثل الوثنيين. ودخلوا في دوامة غير مفهومة من الأخطاء مثل القول بأن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد. وأعطوا لأحبارهم ورهبانهم صلاحيات إلهية مثل قبول التوبة ووضع التشريع، ومظاهر شرك أخرى في العبادات. والتعبير الوارد في الآية حول اتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله يتعلق بالشؤون الحياتية اليومية ويقرر بأنهم لا يملكون حق التشريع. لذا يبدأ القرآن بتخلية القلوب والأذهان وتنظيفها من الشرك بالله تعالى، وبتوجيه العبادة إليه وحده. يجب أن تكون الصلاة والصوم والحج والزكاة لله تعالى، وأن تقدم القرابين والأضاحي له

وحده. هنا قد يقول أهل الكتاب بكل بساطة: "إننا نعمل كل هذا في سبيل الله". هنا تأتي إذن مرحلة عدم الشرك بالله تعالى بأي شكل من الأشكال. أي عدم قبول أي خالق آخر سواه كالطبيعة أو الأسباب أو أي قوى أخرى. والاعتقاد بأن الخلق والموت والحياة والرزق وإدارة الكون يعود إليه وحده. وتنـــزيهه من أن يلد أو يولد أو أن يكون في حاجة إلى أحد، وتنـــزيهه من أي نقص أو عيب، أو أن يكون أحد كفؤاً له. فإن انـــزاح هذا الستار الأسود من فوق الإيمان عند ذلك يمكن التوجه نحو مظاهر الحياة الأخرى، وذلك لكي يتم الإيمان بالله وتتم العبادة الخالصة لـــه، أي يتم التوحيد بكل معانيه. وهكذا فكما يوجد تدرج في دعوة الإسلام، كذلك هناك تدرج في عملية ربط الأذهان والقلوب وربط الحياة اليومية بالتوحيد. وكما أكد الأستاذ النورسي فإن الإسلام -في وجه من الوجوه- عبارة عن تحصيل وترصين وتحكيم الإيمان. أجل! فكل شيء في نـــهاية المطاف يستند إلى الإيمان وإلى التوحيد. وبعد تكوين الحقائق التي يشغل الإيمان والتوحيد مركزها يتم الاهتمام بالمسائل المتعلقة بالمحيط الخارجي وتعيينها.

إن عدم معرفة سعة دعوة الإسلام ودعوة التوحيد وعمقها وسمة التدرج فيها حق المعرفة بمثل هذا المقياس وعدم معرفة استراتيجيتها في بناء الجسور مع مختلف طبقات الشعب وأقسامه، والوقوع في فهم خاطئ في هذا الصدد أدى إلى ابتعاد الكثيرين عن الإسلام. وكانت النتيجة مظهراً مختلفاً بل مضاداً ومخالفاً تماماً لروح هذا الدين الذي يملك قوة جذب قوية تجذب الناس إليه. فمن جانب تم تشويه الرأي العام وتطلعات الجماهير، وسادت العجلة -التي هي من سمات الضعف البشري- كل شيء وأهملت قاعدة التدرج، والأهم من هذا أنه أهمل ترتيب الخطوات المتتالية المذكورة في هذه الآية، حيث تم البدء من نـــهايتها ومن فقرتها الأخيرة. وكانت النتيجة التورط في اتجاه اعتبرته الجماهير اتجاهاً متطرفاً. ومن جهة أخرى تم الادعاء بأنـــه حتى المنحرفين عن الطريق الأحمدي سيدخلون الجنة، وذلك نتيجة لعدم فهم

وإدراك معنى ومضمون هذه الآية الكريمة حق الفهم وحق الإدراك. مع أن الآيات –ومنها هذه الآية– إن دققت جيداً تبين بأنـــها تقيم فقط الجسور مع أهل الكتاب وتفتح الأبواب أمامهم. أما ما يتم بعد دخول هذه الأبواب فلا يصرح به، بل تقوم آيات أخرى بذلك. لذا لا يجوز لأحد أن يقول مشيراً إلى هذه الآية بأن أهل الكتاب إن آمنوا بالله وبرسولنا ولكن لم يسلكوا سبيل الرسول ﷺ "... سيكون كذا وكذا ". لأن مثل هذه الآيات هي لدعوة أمثال هؤلاء إلى سبيل الرسول ﷺ. وبعد دخول سبيله هذا والولوج من باب قصره فإن ما يجب عليهم اتباعه غني عن البيان. ومن أجل فهم الإسلام والقرآن جيدا واستيعابهما يجب النظر إلى القرآن والسنة نظرة شاملة وفهم الأجزاء ضمن هذا الكل ووضع كل شيء في محله الصحيح. فكما تتوجه خلايا الجنين في رحم الأم كل إلى مكانـــها الصحيح دون أي انحراف أو خطأ فلا تذهب خلية العين إلى الأذن، كذلك كان من الضروري وضع كل شيء في مكانه الصحيح عند تشكيل وإنشاء طرز الحيـــاة الإسلامية. وهذا يتعلق بفهم القرآن والسنة ضمن إطارهما الشامل والكلي وفهم واستيعاب كل جزء ووضعه في مكانه الصحيح. وإلا كان من المحتوم ظهور تفاسير واجتهادات منحرفة وخاطئة وتناقضات. وذلك مثل تشوه الجنين في رحم الأم أو مثل حدوث حالات الإجهاض عند الولادة.

والخلاصة أننا نستطيع القول هنا بأنه يمكن دعوة الأرواح والضمائر المختلفة والثقافات والحضارات المستندة إلى مفاهيم مختلفة، والأمم التي شكلتها وأنشأتـــها الكتب المتعددة المنـــزلة في أزمان مختلفة إلى خط قد نستطيع تسميته بـــ"خط الصلح" يقبله كل قلب وضمير. خط يوحد ويؤلف ويتناول كل مسألة في إطار من الرحمة الواسعة الشاملة، وفي دائرة من البعد الكوني، مما يعطي لكل فكر ولكل ضمير فرصة الحل في ظل تحكيم الحق. وهكذا تستطيع الأرواح التخلص من قبضة الأهواء لتصل إلى العبودية الحقة للمعبود المطلق جل شأنه وتنقذ نفسها من العبودية لآلهة الدنيا الزائفة.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾

[آل عمران: ٨٦]

إن الذين يقفون بجانب الظالمين المؤيدين للكفر وللباطل مع أنهم شهدوا جمال الحق ورأوه وقبح الشر وشناعته ليسوا إلا أشخاصاً منحرفين وظالمين. هؤلاء أفراد بؤساء انحرفت فطرتهم وتشوهت وفقدوا قابلية الاهتداء إلى درجة أن الله تعالى لا يجعل لهم نصيباً من الهداية ولا يهديهم إلى سواء السبيل. لا يهديهم لأن أمثال هؤلاء دخلوا في غمرة حركة مبتعدة عن مركز الإسلام، وفي حالة نفسية ترافق هذا الابتعاد وتتسم بمعارضة المركز واتهامه ويبتعدون عنه، مما يؤدي إلى تعميق اسوداد قلوبهم. وهم يحسبون أنهم بعملهم هذا وانتقاصهم للمؤمنين -الذين يدعون أنهم يعرفونهم حق المعرفة لأنهم كانوا من ضمنهم- يقومون بخدمة الكفر والإلحاد وتقوية روحه المعنوية، ويقومون في الوقت نفسه بإغراق المؤمنين في الهم والحزن.

غير أن الله تعالى الذي وهب للإسلام نوراً متميزاً -هو كنور الشمس بالنسبة للأديان الأخرى- سيجعل هؤلاء المبتعدين عن هذا النور في تيه دائم، لا يهتدون إلى شيء أبداً وسيصرفون أعمارهم وحياتهم في هذه العماية لا يجدون شيئا ولا يهتدون إلى أي شيء. وسيكونون أنموذجاً سيئاً للأفراد والجماعات الضالة.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]

كل عبادة تؤدى لله تبارك وتعالى هي شكر في مقابل النعم العديدة التي أسبغها علينا، وربما كانت مقابلة فعلية لها بنسبة ما. مقابلة لا تتم إلا في سبيل الله ومن أجله. وهكذا هي عبادة الحج فهي تعبير عن الشكر مقابل نعمة صحة البدن ونعمة المال الموهوب. لذا يقول من نوى الحج: "أحج لله" لذا يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ﴾ واللام في لفظة "لله" هو للاستحقاق. أما حرف "على" في "على الناس" فهو للفرض. أما لام التعريف في "الناس" فهو للعهد. وهكذا كان البدء باستعمال "على الناس" نوعاً من براعة الاستهلال وإشارة إلى ما يستتبعه من قيود. أي أن كلمة "على الناس" تشير إلى بعض الناس. فمن هم؟ هم من توفرت عندهم نفقة الطريق والقوت والقدرة على السفر، إضافة إلى وجود المحرم بالنسبة للنساء.

ويذكرنا استعمال حرف الجر "على" في الآية "على الناس" بهذه النكتة: الحج عبادة أصعب بكثير من الصلاة ومن الصوم. فإلى جانب مشقة السفر تضطرون إلى إنفاق مبالغ كبيرة، وتبتعدون عن أعمالكم وعن أوطانكم وعن أقربائكم... الخ. وحرف الجر "على" الذي يستعمله القرآن يومئ من بعيد إلى هذه المشاق الخاصة بالحج ضمن الفرائض الأخرى.

وعلاوة على هذا فإن "الاستطاعة" هي تنفيذ الأمر برضا القلب وبنية الانقياد على أحسن وجه وأفضله. وهذا متعلق بالإرادة والقدرة والإمكانية. أي أن الاستطاعة استعملت هنا مكان أجزائها من القوة والقدرة والإمكانية. وكانت سعة معنى هذه الكلمة مصدراً وسبباً لاختلاف التفسير لدى الأئمة المجتهدين، وسبباً للتيسير والتوسعة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢]

تقوى الله حق تقاته يتناسب طردياً مع معرفة الله تعالى، لذا يمكن القول بأن جميع المعارف التي لا تساعدنا على زيادة هذه المعرفة ليست إلا معرفة ظاهرية وعبارة عن قيل وقال. وكذلك فكل مسامرة أو مذاكرة أو أي أسئلة وأجوبة لا تساعد على توسيع هذه المعرفة إسراف في الوقت وإسراف في الكلام. وأشار الرسول ﷺ إلى هذه الحقيقة عندما قال "إن الله كره لكم ثلاثاً" وفي رواية "إن الله حرّم عليكم"[1] وذكر من بينها الإكثار من الأسئلة. وذكر أنموذجاً من هذه الأسئلة "مَن خَلقَ كذا مَن خلَقَ كذا حتى يقول: مَن خلَق رَبّك".[2] ونرى من المفيد سرد نظرتنا حول الأمر الأخير. لقد مر علينا زمن تكلموا لنا فيه عن الأسباب كلاماً وكأن الله تعالى عاجز -حاشاه- وأن الأسباب هي التي تعمل وتنفذ وتخلق وتوجد كل شيء. فعندما يذكرون السرطان يقولون: هذا مرض لا علاج له. وعندما ظهر الإيدز قالوا لا يرجى منه شفاء. وهكذا هدموا لدى المؤمن منذأ الشعور بالتوكل والتسليم. وهذا موجود حاليا -قليلاً أو كثيراً- لدى الجميع. وأرى أنه يجب علينا -عن طريق الاستقراء- الوصول من الأثر إلى المؤثِّر للحصول على الاطمئنان القلبي، وإدراك أن الله تعالى هو مسبب الأسباب كلها، وأنه هو الذي أعطى للأسباب خواصها وصفاتها، وأن نذكر على الدوام أنه قادر

(١) البخاري، الزكاة ٥٣؛ مسلم، العقائد ١٠، ١٣، ١٤؛ الموطأ للإمام مالك، الكلام ٢٠؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٢٢٧، ٣٦٠.

(٢) البخاري، بدء الخلق ١١؛ مسلم: الإيمان ٢١٤.

على الخلق وعلى الإيجاد خارج دائرة الأســـباب، فنجدد باستمرار أفكارنا الإيمانية.

إن السعي لتقوى الله حق تقاته، أي تذكر مخافته ومهابته على الدوام وفي كل الأحوال، والاهتمام بكل وسيلة وسبب يؤدي إلى هذا الشعور الصادق، وعدم السماح بوجود أي ثغرات بين الحياة وبين هدف هذه الحياة وغايتها، والعثور في أي كلام أو حادثة أو حديث ما يمكن جره وتحويله للتذكير به، وإدامة الحمد والشكر له على نعمه العديدة التي لا تعد ولا تحصى ضروري للولوج إلى طريق التقوى الحق. وهذا يعني في الوقت نفسه ضمانا للمؤمن إذا مات أن يموت على الإيمان، وهو حالة مرضية وخاصة بالأنبياء الكرام وبورثة الأنبياء من أهل الخواص. وقد كان الصحابة الكرام يعبدون الله حتى تتورم أقدامهم وتنهك أنفسهم من أجل إحراز هذه المرتبة من التقوى والوصول إلى هذا الهدف، وقد عملوا ما بوسعهم على قاعدة ﴿اتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: ١٦) وذلك طوال حياتهم.

﴿وَمَاظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧]

كثيراً ما ترد هذه المسألة في القرآن الكريم بصيغة ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. وكما يلاحظ فالفرق بين الصيغتين هو فعل الكينونة "كانوا".

أجل! لا يوجد فعل الكينونة "كانوا" في الآية أعلاه. وهذا يذكرنا -والله أعلم- بما يأتي:

١- ظلم هؤلاء لأنفسهم لن يكون في الخفاء وفي السر، بل يكون صراحة وفي العلن بحيث إن ظلمهم -ولا سيما لأنفسهم- سيكون علنياً إلى درجة لن يكون هناك حاجة للتصريح به، لأن الجميع سيرونه وسيدركونه.

٢- إن فعل الكينونة يفيد معنى عدم الوجود في السابق، ووجوده في الحال. أما الكافرون فهم يظلمون أنفسهم منذ القديم وحتى الآن، وهذا ما يشاهده الجميع. لذا خلت هذه الآية الكريمة من فعل الكينونة "كانوا".

٣- من أجل إيضاح معنى الفقرة الثانية نقول بأن الذين أوتوا الكتاب بعد أن وصلوا بهذه الكتب إلى الهداية فترة من الزمن زاغوا عن هذه الهداية، ووقعوا في الكفر وفي الضلالة. أي لم يكونوا ظالمين منذ البداية، لذا كان من المناسب استعمال فعل الكينونة "كانوا" في حقهم لإيضاح هذا الأمر. أما حال الظالمين منذ البداية فلا تحتاج إلى أي تقييد ولا إلى أي إيضاح آخر.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤]

كان طلاب النور عندما يتعرضون لأي أذى أو أي ظلم وتعسف، يذكّرهم الأستاذ بديع الزمان بضرورة تكرار قراءة هذه الآية وتفسيرها. وكشخص مثلي استفاد من درس الأستاذ النورسي لنقرأ هذه الآية مرة أخرى ولنأخذ منها الدرس الواجب أخذه.

إن استغراق أي جماعة -تعاني من خوف ومن اضطراب شديدين- في النوم ووصولهم إلى أمن وسكينة روحية وقلبية وإلى طمأنينة كاملة إنما هو لطف من الله تعالى وفضل منه لهذه الجماعة. وهو دليل ثقة من الجماعة وتسليم وتفويض واعتماد وتوكل منها على الله تعالى. وفي معركة بدر وأحد كان ظهور مثل هذا الاطمئنان وهذا الوعد الإلهي، ووقوع هذه السكينة الرحمانية بنسبة الالتزام بالدين وبنسبة توجه القلوب إلى محرابها الحقيقي. وهذا وارد في كل وضع ولكل توجه صادق.

أجل! إن الدين هو روح الحياة، وإعلاء كلمة الله أقدس الوظائف، وصرف الحياة وإفناؤها في هذا السبيل، هو السبيل لطرق باب الحياة الأبدية والوجود الأبدي. وبمقياس وضع رضا الله تعالى كغاية الغايات ستهب في المقابل عنايته ورعايته وحمايته. وهذه العناية والرعاية معروضة في كل زمان ومكان وبنسبة مقاربة للعناية المذكورة للصحابة ﷺ كلما توفرت شروط هذه العناية وظروفها وأسبابها. ومن كان من المؤمنين في مثل هذا المستوى من الإيمان والتسليم والتوكل يستطيع التصدي حتى لنيران نمرود بصدر مفتوح وبقلب مطمئن، بل ربما قلب تلك النيران برداً وسلاماً. وفي مقابل الحياة الهادئة المطمئنة لهؤلاء، هناك زمرة تشارك هؤلاء الظروف نفسها، غير أنها لا تتنفس الأجواء نفسها. لذا نراها منكبة على متطلبات أهواء أنفسها، فتنعكس الشبهات الموجودة في مشاعرهم وأفكارهم لترسم لهم سبل حياة مليئة بالتناقضات المخجلة. لذا لا يرى هؤلاء وجه الراحة والاطمئنان أبدا، بل سيعيشون حالة تذبذب، لكون رؤوسهم مملوءة بالأفكار الجاهلية، وحتى لو آمن هؤلاء فإن أفكارهم حول الاطمئنان إلى الله تعالى ستكون مشوبة بسوء الظن. والآية الكريمة ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُم أَنفُسَهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ توضح حالة اليأس العكرة في مشاعر هؤلاء وما يعانونه من تردد وإحباط.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]

يعد مثل هذا التأمل الشامل من أهم نواقصنا!... أجل!... تأمل يجدد إيماننا ويحفظه حياً على الدوام. فكما ينتفض الجسم إن صببت عليه قطرة ماء باردة لم يألفها، كذلك علينا العثور في مرصاد الفكر والتأمل على ما يجعل إيماننا ينتفض، ويجعلنا نشاهد تجليات أسماء وصفات المالك الحقيقي للأشياء وصاحبها والمؤثر الحقيقي فيها. وأن نقضي الأيام الباقية من حياتنا في دائرة رضا الله تعالى وفي ضوء هذا النور المتولد من عملية التفكير والتأمل هذه.

ولكن الشعور والسماع والفهم وتقييم الروح والمعنى والصوت والنفس واللون والزينة واللغة والشوق الذي يسري جميعها في السماوات والأرض وما بينهما لا يكون متيسراً للجميع، بل تبدو هناك الحاجة إلى من يستطيع إدراك هذا الغنى وسبر غوره في الألوان وهذا التناغم في الأصوات والموسيقى ثم تقييمه من قبل فئة المثقفين من "أولي الألباب" الذين لم تفسد عقولهم بالأخطاء والانحرافات و لم تفسد لديهم المعايير والمقاييس بالأهواء النفسية... نحتاج إلى "أولي ألباب" الذيـــن يستطيعون سبر غور السماوات والأرض بجميع صفاتها التي يذكرنا بها مفهوم المكان، وما يتطلبه خلق ما فيها من الأشياء والكائنات من توجه الإرادة والاختيار من جميع نواحيها انطلاقاً من مبدأ تناسب العلية للوصول عن طريق المنطق والتحليل والتركيب إلى المسبب الكامل وإلى صاحب القدرة الكاملة جل جلاله. لقد خُلق روح كل إنسان وعقله بحيث يستطيع فهم هذا وإدراكه فطرياً، ولكن العوائق من أمثال الكبرياء وتجاوز الحد والخطأ في زاوية النظر تمنع رؤية الهدف بشكل واضح. وحتى لو بلغ الإنسان ذروة العلم فلن يستطيع الخلاص من القرارات الخاطئة ما لم يستطع الخلاص من هذه العوائق.

سورة النساء

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٨]

لحظة اليأس هي اللحظة الأخيرة في حياة الإنسان الذي لم يُقبل إيمانه. ولكن من المهم تعيين بداية هذه اللحظة. هذه البداية تكون في الآونة التي ييأس فيها الشخص في لحظاته الأخيرة من العودة إلى الحياة الدنيا والعيش فيها بكامل شعوره. وفي نظرة أخرى هي اللحظة التي ييأس فيها الشخص المشرف على الوفاة والملتفون حواليه من عودته إلى الحياة الدنيا.

أجل! يُقبل إيمان المرء حتى في لحظاته الأخيرة -ما دام مالكاً لقواه العقلية- إن استطاع الإيمان. وهذه هي اللحظة التي كرر فيها الرسول ﷺ طلبه الإيمان من عمه أبي طالب. ولكن أبا طالب ذكر -نتيجة لضغوط خارجية- بأنه "يموت على ملة عبد المطلب".[1] وحادثة أخرى يستحق الوقوف عليها هي حادثة الصبي اليهودي المريض. فقد زار الرسول ﷺ صبياً يهودياً مشرفاً على الموت فلقنه أن يقول: "لا إله إلا الله" فنظر الصبي إلى والده كأنه يستأذنه، فأشار إليه والده بالقبول فانطلق الصبي يعلن إيمانه

(١) البخاري، مناقب الأنصار ٤٠؛ الجنائز ٨٠؛ مسلم، الإيمان ٣٩.

ويتلفظ بكلمة الشهادة.[1] إذن فما دام الشعور غير مختل فإن أبواب السماء تكون مفتحة لقبول الإيمان.

أجل! لحظة اليأس -أي اللحظة التي لا يقبل فيها الإيمان- هي اللحظة التي لا يملك فيها الإنسان شعوره وهو على وشك مغادرة الدنيا ولا يُقبل فيها إيمانه. ولكن إن حصل العكس، فإنه ينظر إلى نية الشخص في تلك اللحظة وشعوره وقناعته كبذرة ستنمو في الحياة البرزخية وفي حياة الحشر وتكبر لتكون باقة جزاء ومكافأة له.

إذن فما دام الشخص قبل لحظة الاحتضار لم يقطع أمله من العودة إلى حياة الدنيا ولم ييأس منها فإن التوجه من الكفر إلى الإيمان يكون مقبولاً على الدوام. فإن كان الوضع معكوساً كان له حكم مختلف. أي إنه إن تم قطع الأمل من الدنيا وفتحت أستار النظر إلى حياة العقبى فإن الفرصة تكون قد فاتت. لأنه لم يعد هناك مجال للقيام بأي عمل صالح وإن كان كلمة طيبة. والرحمة الإلهية تعطي فرصة للذين لوثوا حياتهم الدنيوية بالفسق والفجور إن آمنوا وتابوا وذلك حسب فحوى الآية الكريمة ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ (الزمر: ٥٣).

(١) البخاري، الجنائز ٧٩؛ المرضى، ١١.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النساء: ٢٩]

عندما يقول القرآن "لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل" يستعمل تعبيراً شاملاً. فهو يوجه الأنظار إلى حرمة أكل الأموال العامة إلى جانب أموال الأقرباء وذي الرحم أو استعمال أمتعتهم دون رضاهم. فكما يدخل في هذا الإطار النهب والسرقة يدخل فيه الغصب والربا والميسر والإسراف والسفاهة في صرف الأموال وتحصيل الأموال بطرق غير مشروعة. أما الربح الناتج عن طريق مبادلة الأموال برضا جميع الأطراف، والربح الناتج عن التجارة -وهي المذكورة هنا لأنها أهم طريق ووسيلة للربح- فهو ربح كاف للمعيشة فلا تبقى هناك حاجة ولا ضرورة للولوج إلى طرق الحرام ولا إلى الطرق المشبوهة.

ويمكن فهم ملاحظة ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُم﴾ الواردة في الآية على معنيين:

١- إن من يرتكب إثم التورط في الربا أو الميسر أو الرشوة... إلخ من طرق الحرام فإنه يكون بذلك قد قتل نفسه معنوياً وقضى عليها.

٢- إن الناس إن دخلوا في أي معاملات محرمة وباطلة وظالمة في كسب الأموال وإنفاقها وكل تصرف من هذا القبيل، وقبول أي مبدأ مستند إلى هذا كالرأسمالية أو الليبرالية المفرطة أو حتى البراغماتية والميكافيلية سيؤدي إلى ظهور نظم أخرى كردود فعل لها كالشيوعية... وهكذا تفتحون الباب أمام القتلة والسفاحين وإلى عمليات التشريد.

أجل! إن دخلتم من البداية في مثل هذه الأنظمة فالنتيجة هي أنكم

ستقومون بقتل بعضكم بعضاً. لذا فلا تدعوا الإسلام وتهملوه فتدخلوا في سبل ضالة مختلفة تكون نتيجتها أن بعضكم سيقتل البعض الآخر. أجل! إن حال الدنيا التي يتم فيها تطبيق هذه الأنظمة شاخصة أمام أعيننا وهي تؤيد وتصدق هذه الآية الكريمة.

٣- ظاهر الآية متوافق تماماً مع معنى النهي عن الانتحار أي قيام الشخص بقتل نفسه. غير أنه يوجد هناك بعض الجوانب الأخرى لهذه الآية. فمثلا إن الإخلال بالتوازن الموجود بين الطبقات والفئات المختلفة للمجتمع يجر ذلك المجتمع إلى الأزمات وإلى صراعات داخلية. كما أن قيام بعض الجاهلين -انطلاقاً من مفهومهم الخاطئ عن الزهد- بترك الطرق المشروعة للكسب، واختيار الفقر وشظف العيش يجر الأمة إلى الضعف والهلاك. كما أن استيلاء احدهم على أموال الآخرين بطرق غير مشروعة أو تحريض الآخرين على هذا الغصب والاستيلاء غير المشروع يجعله مستحقاً للقتل. وهذه بعض النقاط المفهومة من الآية.

وتتجلى رحمة الله الواسعة والشاملة بقيامه بالهداية إلى أسلم السبل، وهذا هو المنتظر من الله الرحمن الرحيم.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١]

عند عرض هذه الآية الكريمة يذكر الحديث الآتي عادة: "اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات".(١)

وأنا أريد هنا التوقف قليلاً على "التولي يوم الزحف" الوارد في هذا الحديث الشريف. ومعناه النكوص على العقبين والهرب في يوم القتال والجهاد. وهذا هو معنى استعمال تعبير "التولي يوم الزحف". وهذا يعني أن الكفاح إن كان مستمراً مع عالم الكفر وإن لم يكن كفاحاً وصراعاً حاراً، أي حتى لو كان حرباً باردة ساحتها الثقافة والتربية والتعليم والسياسة والفن... الخ من الساحات المختلفة والمهمة التي يجري الصراع فيها في أيامنا الحالية مثلا فإن المؤمن المنسحب والمتقوقع على نفسه –حتى ولو كان بنية زيادة كماله الروحي– سينطبق عليه هذا الحديث النبوي ويكون آثماً. فإن كان هناك من وعى ضرورة مثل هذه الخدمة والدعوة ثم نكص على عقبيه في أثناء الكفاح مهما كان نوع هذا الكفاح فلا شك أنه يرتكب بذلك إثما كبيرا. هذا علاوة على أن مثل هذا التصرف سيضعف الروح المعنوية في الجبهة الإسلامية، ويُسعد الأعداء ويغمرهم بالفرح، وهذا ذنب إضافي.

وعند ترك هذه الكبائر المؤدية إلى الهلاك –والتي توقفنا عند واحدة منها فقط– فالله تعالى يعد بمغفرة الأخطاء التي لم تقترن بالإرادة والقصد وبمغفرة

(١) البخاري، الوصايا ٢٣؛ الطب ٤٨؛ الحدود ٤٤؛ مسلم، الإيمان ١٤٥؛ أبو داود، الوصايا ١٠؛ النسائي، الوصايا ١٢.

الذنوب التي لا تعد من الكبائـــر. وهذا يعد تطهيراً إلهياً واستحقاقاً لحياة ســـعيدة في حياة البرزخ وحياة الآخرة، ونيل سعادة التجول في جنان الجنة ونيل الحظوة والسعادة في رؤية جمال الله تعالى.

أجل! إن الأبطال الذين يعرفون كيف يتمردون على الآثام سيدخلون قبورهم مدخلاً كريماً كالقواد الظافرين. وبنفس مطمئنة يسيحون في الحياة البرزخية، وبنفس الاطمئنان والفرح والحبور ســـيدخلون الجنة ويشاهدون ويتطلعون إلى الجمال الإلهي. ذلك لأن الكفاح في ســـبيل عدم الوقوع في الإثم يعادل تماما الكفاح في سبيل عمل الحسنات والخيرات. فإن اعتبرنا الجوانب السلبية والإيجابية للأعمال بُعداً من الأبعاد، فإن الثبات في كلا الجبهتين "أي عمل الخير واجتناب الشر" يشكل نجاحاً كبيراً ويوصل الإنسان بسرعة الصاروخ إلى عاقبته الطيبة المقدرة له.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

[النساء: ٥٦]

يشرع أكثر المفسرين عند تفسير هذه الآيـــة ببيان هول وعظم عذاب جهنم بذكر الحديث النبوي الشريف الذي رواه ابن عمر ﷺ: "يعظم أهل النار في النار حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام وإن عظم جلده سبعون ذراعاً وإن جلده مثل أُحد".(١)

والإطار العام لهذا الحديث هـــو وصف عذاب جهنم ووضع الذيـــن يتعرضون لهذا العذاب. وأرى أنه من الممكن فهم هذا الحديث على الصورة الآتية أيضاً:

إن الإنسان يتطور ويترقى من النـــاحية الروحية. مثلاً يلتذ أحدهم في صلاته عشرة أضعاف لذتك أنت. إذن فقابليته في التلذذ قد ترقى كثيراً. والأمر نفسه موجود في الشعور بالألم أيضاً. والشخص الذي رهفت عنده هذه الناحية يتألم من أبسط الأشياء، ويصاب بالأرق، وقد يغمى عليه جراء ألم في أسنانه. لذا قال أكرم الأنبياء: "إني أوعك كما يوعك رجلان منكم".(٢) إذن فكما يزداد الألم بكبر الجسم وتضخمه في الآخرة فإن زيادة الشعور بالألم في جهنم -بسبب حكم عديدة- قد يُعَبّر عنها هكذا أيضاً. والحقيقة أنه لا تضخم الجسم بسبب المعاصي والذنوب ووصوله إلى ضخامة

---

(١) مسلم، الجنة ٤٤؛ المسند للإمام أحمد، ٣٢٨/٢، ٣٣٤، ٥٣٧؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٣٩١/١٠ - ٣٩٣.

(٢) البخاري، المرضى، ٣، ١٣، ١٤، ١٦؛ مسلم، البر ٤٥.

الجبال، ولا تضخُّم المعاصي والآثام وتوسعها سعة الروح ليتعذب الإنسان بحسبها "أي حسب هذه السعة" ليس مما ينافي العقل. فسعة العلم الإلهي وقدرته وإرادته المحيطتين بكل شيء تستطيعان تحقيق ذلك في كل زمان ومكان. ونحن نلتجئ إلى رحمته الواسعة ونسأله أن يشملنا بها وأن يعاملنا حسب هذه الرحمة الواسعة.

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤]

توجد إرشادات عديدة في هذه الآية الكريمة متعلقة بالخدمات الدينية اليوم. ففي عهود كالعهد الذي نعيش فيه وفي العهود الأخيرة من تاريخنا القريب عندما تكون الدعوة إلى الإسلام وتبليغ رسالته الشافية للإنسانية صعباً بسبب بعض العوامل السلبية، فإن هذه الدعوة وهذا التبليغ سيتم سراً وهمساً، أي على قاعدة "وليتلطف". وتذكر الآية الكريمة أعلاه بأن هناك أجراً كبيراً لمن يقوم بهذا. وكما هو واضح فالله تعالى يضع الثواب بشكل مطلق ودون أي تحديد لكي يثير أشواقنا وَوَجْدَنَا ويزيده كما جاء في الحديث القدسي حول الصوم "الصوم لي وأنا أجزي به".[1]

المشاعر السيئة والعادات الخبيثة والأفكار المنحرفة السوداء، والحيل المحبوكة ضد المؤمنين، والمؤامرات والدسائس المطبوخة تجاههم أمور سوداء منشأها ومولدها من الشر، لا ينفذ منها أي بصيص من الخير حتى لمن كان من ورائها من الأشرار لأنـــهم لن يستفيدوا منها. أما المشاعر الصادقة المخلصة كالأمر بالصدقة ونشر الخير والجمال والمعروف والإصلاح بين الناس فمشاعر مختلفة... ومن يفعل هذا وهو يبتغي بعمله وجه الله تعالى ورضاه ولا سيما في مثل هذه الظروف غير المواتية وغير الطبيعية والتي تقتضي السرية في أعمال الخير فانـــه سيكافأ مكافأة عظيمة ويأخذ أجراً كبيراً. أولاً لعمله وثانياً بالنظر للظروف غير الملائمة.

---

(١) البخاري، الصوم ٤؛ مسلم، الصيام ١٦٥.

أجل! يمكن تأسيس مؤسسات مدنية مختلفة غايتها تحصيل الرضا الإلهي لتحقيق هذه الأمور الثلاثة مع شروط وجود الشورى في هذه المؤسسات، لأن كل مسألة من هذه المسائل الثلاث لها أبعاد اجتماعية مهمة. وفي أمثال هذه المسائل التي تتعلق بقوانين المجتمع وحقوقه فإن من الحكمة اللجوء إلى حكمة الشورى التي أوصانا بـــها الرسول ﷺ في جميع الأمور.

وعلى العكس من هذا، فإن على المؤمنين الحذر من أي تجمع غايته التهامس بالشائعات حول هذا أو ذاك، أو القيام بتشكيل جماعات سرية، والحيلولة دون تشكيلها إن أمكن.

﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾
وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ
وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن
دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ ﴾

[النساء: ١١٨- ١١٩]

هذا الكلام الوقح الذي تكلم به الشيطان مع الله تعالى والوارد في هذه الآية وفي آيات عديدة أخرى: إما أن الله تعالى سمح به وأذن له بهذا. وإما أنه -حسب بيان العديد من المفسرين- ما جال في خاطره وما اقتضته فطرته، وأن الله تعالى أخبرنا به.

وسواء أكان هذا بيان لسان حال الشيطان، أو دمدمة فطرته، فإنه يبين عزمه على الانتقام من عباد الله الذين لم يصلوا إلى مرحلة الإخلاص. وإن اللعبة الشيطانية الأولى التي جرت معه على سطح هذه الأرض، مستمرة اليوم من قبله ومن قبل أتباعه فهم مستمرون في محاولة فتنة الناس وخداعهم بالأماني الباطلة، ومحاولة دفع الإنسان لتبديل فطرته وفطرة الإنسان والمخلوقات الأخرى، وإفساد التوازن في هذه الفطر. وكما أن إقامة التوازن الروحي للإنسانية مرتبطة بالابتعاد عن طريق إبليس، فإن المحافظة على التوازن في الطبيعة -ومن ضمنها الإنسان- مرتبطة بهذا الابتعاد. والذين يدخلون إلى طريقه الضال في خسران مبين ومن أصحاب الحظ النكد. أما الذين وفقوا للابتعاد عنه فهم المحظوظون القريبون من الله تعالى.

سورة المائدة

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ﴾ [المائدة: ١٨]

الأمر الذي تقوم هذه الآية الكريمة بتوضيحه يتجلى في حياتنا بالشكل الآتي: عندما نقوم بتقييم تمرد الآخرين وعصيانهم، لا نقوم بهذا التقييم بعد وضع أنفسنا في داخل إطار هذه المسألة، ولا نحاسبها بنفس المقاييس التي نحاسب بها الآخرين. فمثلاً عندما نقول بحق شخص اقترف سيئة ما: "لماذا لا يعاقبه الله ويخسف به الأرض؟" فإننا في الوقت نفسه نأمل ونتوقع أن يصفح الله عن ذنوبنا بسبب قيامنا بعمل حسنة صغيرة. بينما كان من المفروض من ناحية أسلوب وطراز التفكير أن نشرك أنفسنا من ناحية السيئات في ذلك الصنف، أو أن نتوقع –من ناحية الحسنات– وجود احتمال الصفح عنهم لوجود حسنات لهم. أما التقدم خطوة أخرى في هذا الأمر فهو تصغير ذنوبهم لكي تكون بحجم بندقة واحدة وإن كانت في الحقيقة بضخامة الجبال، والقيام بعكس هذا بالنسبة لأنفسنا.

إذا تفحصنا مزاعم أهل الكتاب الواردة في الآية الكريمة أعلاه بهذا المقياس نرى مدى قبحها وبشاعتها لدى الله ولدى الناس أيضاً. فهناك بعضهم يقومون ليدعوا بأنهم مختلفون عن الناس ولا يشبهونهم، وأنهم أحباء الله ويرون هذا سبباً في الفخر والمباهاة، ولا يترددون في التصرف دون أي مبالاة أو توقير تجاه الله تعالى، والنظر إلى الآخرين نظرة احتقار واستهانة نابعة

من قبولهم لزعمهم الذي يفتح الباب أمام جميع السلبيات الأخرى وهو: "لما كنا قريبين من الله بـــهذه الدرجة، إذن فسيغفر لنا –حاشـــاه– كل ما سنفعله". كان عزير عليه السلام حسب زعمهم ابن الله وكذلك المسيح عليه السلام بالنسبة لقوم آخرين، وكان المنتسبون لهؤلاء الأنبياء يرون أنفسهم أيضاً أبناء الله وإن كان بشكل مجازي لذا كانوا يقولون "لا خوف علينا ولا قلق، لأن الله سيصون أبناءه وأحباءه، ولا مجال هناك لأي تـــهديد أو وعيد في حقهم. ليكن الخوف والقلق من نصيب من لم يكن لـــه نصيب من هذا الشرف، فالعذاب لهم والعقاب من نصيبهم". ومع أن هذا غير موجود في كتبهم، إلا أنـــهم كانوا يجيبون بـــهذا الجواب كلما تم تـــهديدهم بآيات العذاب، وكانوا يعتقدون بأنـــهم ينتصرون في نقاشهم الـــذي يجرونه مع صاحب الرسالة ﷺ ومع صحابته، ويتخيلون بأنـــهم سيصلون إلى شيء بـــهذا الكلام وبـــهذا النقاش.

صحيح أن تعبير "ابن الله" وارد في بعض الكتب السابقة. وكما يمكن أن يكون هذا خطأ في الترجمة، أو أنه تعبير مجازي حول شفقة الله ورحمته بـــهم كرحمة الأب. وليس من النادر استعمال كلمة "الأب" في كتب الأديان السماوية بمعنى "الرؤوف" و "الرحيم".

وأمام استعمال مثل هذه التعابير سواء بالمعنى الحقيقي أو المجازي في مقام النقاش جاء الجواب المسكت لهم بـــأن "لو كنتم أبناء الله وأحباءه كما تزعمون فلم يعذبكم بذنوبكم، ولم تتعرضون للمذابح وللأسر في كل مكان ولا يقومون على الخلاص مما أنتم فيه؟"

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤ ﴾

[المائدة: ٥٤]

تحتوي هذه الآية في الحقيقة على أشياء مهمة جدا، على رأسها التنبيه بإمكانية وقوع الارتداد بين المؤمنين، وأنه قد يعجز بعض من يمثلون الإسلام في المستقبل في إبداء الاهتمام والحساسية التي يقتضيها حمل هذه الأمانة. لذا عندما عجز الأمويون عن حمل هذه الأمانة -التي تصدوا لحملها زمناً- وضعفوا عنها انتقلت الأمانة إلى العباسيين، ثم إلى السلجوقيين ومنهم إلى العثمانيين. والقوم الذي سيأتي بهم الله أتى بصيغة النكرة "قوم"، أي بقوم لم يكن الصحابة يعرفونه في وقت نزول الآية.

ونرى أن الآية ﴿فَسَوفَ يَأْتِي اللهُ بِقَومٍ﴾ قد استعملت صيغة المستقبل البعيد "سوف"، وأن الصفة الأولى من صفات هؤلاء القوم الذين بشر الله بمجيئهم في المستقبل البعيد هي أن الله تعالى يحبهم. وهنا توجد نكتة دقيقة.فالحب الموجود بين العبد وبين الله كما يمكن أن يكون بالتوجه من العبد إلى الله وفي مقابله يأتي الحب من الله نحو العبد، وهذا من صفات المريد، كذلك يمكن أن يكون من الله نحو العبد وفي مقابله يتوجه الحب من العبد لله. ويمكن أن يطلق على هذا صفة المراد. أجل! يختار الله بنفسه بعضهم لإعزاز دينه وكذلك لإعزاز هؤلاء بدينه. واختيار الأنبياء هو من هذا النوع من الاختيار. وكما جاء في حديث نبوي[1] رواه عبد الله ابن

(١) عن عبدالله بن مسعود قال: "إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه

مسعود فـــإن أصحاب الأنبياء أيضا يُختارون من قبـــل الله لإعزاز دينه وخدمته. نستطيع توضيح ذلك فنقول إن الله تعالى يقول: "إنني سأختار محمداً ﷺ -مثلاً- وأصحابه لإنجاز هذا العمل". وكما جـــاء في آخر الآية فهذا هو ﴿فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. وتقول آية أخرى بأنه لا يحق لأحد الاعتراض على ما قسمه الله.

وكما اختار الله تعالى رسولنا وأصحابه في وقت مهم سيقوم باختيار قوم آخرين لإعزاز دينه في هذا الزمن الـــذي تركت فيـــه خدمة هذا الدين وحوصرت قلاع الإسلام من جميع جهاتها. صحيح إن هذا الاختيار ربما تم في معنى من المعاني في عالم الأرواح. وعلى أي حال فإن الله تعالى سيعلي كلمة هذا الدين مرة أخرى بواسطة أناس وقوم يحبهم ويحبونه. لذا كانت أوصاف هذا القوم مهمة. ودوام الآية يبين أهمية هذا الموضوع.

هذا القوم جماعة نـــزيهة وطاهرة إلى درجة أنه في مقابل أن الله تعالى عندما أحبهم واختارهم كجماعة، فهم يحبون الله تعالى من أعماق قلوبـــهم، وتصف آية أخرى هذا الحب فتقول بأنـــهم لن يكونوا في صف أعداء الله حتى وإن كان هؤلاء الأعداء آباءهم أو أجدادهم أو إخوانـــهم أو أبناءهم أو عشيرتهم. فحبهم معقود لله تعالى وحده: يحبون لله ويبغضون لله، يعطون لله ويأخذون لله. ولا يشغل قلوبـــهم ولا معاملاتهم شيء سوى حب الله، فلا شيء هناك يتقدم على هذا الحب، أو يحل محله. هذه هي الصفة الأولى والصفة الأهم في الجماعة التي ستأتي عندما يحين موعد قدومها والتي هي على اثر مدرسة الصحابة الكرام، أي صفة حب الله تعالى وابتغاء مرضاته على الدوام، وترجيح هذا الحب وهذا الرضا على ما عداهما.

لنفسه فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه فما رأى المسلمون حسناً فهو ثم الله حسن وما رأوا سيئاً فهو ثم الله سيء". المسند للإمام أحمد، ٧٩/١؛ حلية الأولياء لإبي نعيم، ٣٧٥/١؛ المستدرك للنيسابوري، ٦٣٢/٣؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ١٧/١٠.

والصفة الثانية لهم هي أنهم أذلة على المؤمنين، ومتواضعون مع جميع المؤمنين غاية التواضع. واستنادا إلى نظرة الأستاذ النورسي الذي يقول: "الإكراه مع البدو والإقناع مع الحضر ومع المدنيين" نستطيع تقديم تقييم آخر فنقول:

كانت جبهة الأعداء في وقت الصحابة متكونة من البدو، لذا كانت الغلبة عليهم تقتضي نوعا من استعمال القوة ضدهم. كما كان الانشقاق قد بدأ بالظهور بين أفراد العائلة الواحدة نتيجة لظهور الإسلام والإيمان. وكانت "العصبية الجاهلية" أي الرابطة القومية والقبلية عنصرا مهما من عناصر ربط المجتمع وتوحيده. لذا كان استعمال الشدة مع تلك الظروف ضد الكفر والإلحاد ضروريا ومهما. لذا يجوز أن هذا هو الحكمة من وضع القدر الإلهي كإشارة وكرمز أبا بكر ﷺ -المعروف برقته- في المقام الأول ويضع عمر بن الخطاب ﷺ -المعروف بشدته ضد الكفار- في المقام الثاني.

ولكن العالم الآن قد تمدن وتحضر في معظمه، لذا فالغلبة الآن تتم عن طريق الإقناع وعن طريق العلم وعن طريق المحاورة والكلام أكثر مما تتم عن طريق القوة والعنف. وفي مقابل هذا فقد نمت الفردية بين الناس وضعفت العلاقات الرابطة بينهم. وبما أنه أصبح الدور الآن هو دور الجماعة والشعور الجماعي أكثر من دور الأشخاص والأفراد المتميزين والفريدين، فإن المطلوب ليس التصرف برحمة وشفقة نحو المؤمنين بل بأسلوب أكثر لينا وتواضعا، أي أذلة على المؤمنين،لا يقابل الشتم منهم إلا بالسكوت ولا يقابل عدوانهم إلا بالصبر، أي يضع رأسه تحت أقدام المؤمنين. ودرجة الرحمة المطلوب تأسيسها بين المؤمنين أعلى بكثير من درجة الشدة المطلوبة نحو الكافرين والملحدين. علماً بأن أول شرط في تأسيس الوفاق في هذه الخدمة المدنية بعد حب الله وابتغاء رضاه هو تأسيس جو هذا التذلل بين المؤمنين. أي حال التواضع الشديد. ومهما بذلنا من جهد في هذا السبيل فلن يغلى على هذا الهدف.

ونستطيع أن ننظر إلى نصيحة الأستاذ النورسي بضرورة قراءة رسالة الأخوة والإخلاص كل أسبوعين مرة في الأقل من هذه الزاوية. ويحتمل أن أكبر امتحان لنا سيكون في موضوع علاقات الأخوة الموجودة فيما بيننا.

ثم تقول الآية بأن المؤمنين يكونون ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وهذا حسبما نفهم شيء أقل من الشدة. وكما قلنا أعلاه فإن مقابلة الأفكار المعادية في عصرنا الحالي والتغلب عليها يكون في الأكثر عن طريق الحوار والإقناع وليس عن طريق استعمال الشدة، لذا يكون حملنا لعزة الإسلام وكرامته كافيا تجاههم. وفي دوام الآية نجد أن صفة ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ﴾ مرتبطة بهذه الملاحظة. وكما نعلم جميعا فقد جاء وقت استهين فيه بالمؤمنين، وأصبح قول "إنني مسلم" سببا للاستهانة والتحقير. لذا رجحنا في طريق خدمتنا الإيمانية عدم الالتفات للجاه أو المنصب أو البزات الرسمية أو العناوين والرتب، بل اعتبرنا الإسلام السبب الوحيد للعزة، لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. لذا يجب ألا نشعر أمام الملحدين وغير المؤمنين بشعور النقص، على العكس من هذا يجب أن نحس تجاههم في أعماق نفوسنا بعزة الإسلام، وبهذا الشعور نقوم بوظيفتنا في الإرشاد في البيت والمدرسة وفي السوق والشارع، وفي أي مكان نوجد فيه، وأن نمثل ديننا في عملية الإرشاد دون أن نخشى لومة لائم. وعندما يعدد القرآن صفات هذه الجماعة يقوم بالإشارة إلى بعض الحوادث الجارية في زماننا بشكل إعجازي... أجل! لو تم تناول هذه الآية من هذه النقطة فقط لرأينا أنها مفتوحة لمعانٍ كثيرة.

وهناك جهة إخبار غيبي في هذه الآية مما يشكل موضوعاً مستقلاً بنفسه. ومهما كانت الحادثة التي نزلت بسببها هذه الآية، فإن حكمها حكم عام مثل العديد من الآيات الأخرى. فقد أُريد من هذه الآية لفت نظر المؤمنين إلى أمر في غاية الخطورة وبأسلوب مؤثر يهز النفوس. وهذا الموضوع الذي تم تنبيه

المؤمنين إليه بجانب كونه موضوعاً كبيراً ومتشعباً فإنه منتشر في كل زمان وعهد بمقياس واسع يكفي لهز أنفس المسلمين. وهو منتشر إلى درجة أن الارتداد الذي بدأه بنو مدلج بزعامة أسود العنسي، ثم بنو حنيفة بزعامة مسيلمة الكذاب وطليحة ابن خويلد الذي أشعل نار الفتنة والانحراف بين بني أسد والقبائل التي ارتدت في عهد أبي بكر ﷺ وكان منها فزارة وغطفان وبنو سليم وبنو يربع وقسم من بني تميم، وكندة، وبنو بكر وغسان... كل هذه القبائل أخذت نصيبها من هذا الارتداد. حتى إن الأمويين والعباسيين والعثمانيين ومن جاءوا من بعدهم أخذوا نصيبهم من هذا الأمر، وإن كان بشكل نسبي واضافي، وذاقوا مرارته.

لذا فهذه الآية تقول لكل من يترأس الأمة الإسلامية:

أيها المؤمنون! من يرتد تماما أو جزئياً عن هذا الدين فليعلم بأن الله سوف يقوم باستبداله بقوم آخرين لا يعلم أحد زمانهم وفي أي عهد، ولا يعلم أحد مكانهم ومن أين يأتون، ولكنهم قوم نجباء لهم صفات معروفة، يحبهم الله ويحبونه، وهم متواضعون وأذلة للمؤمنين، وأعزة على الكفار وعلى الملحدين المعتدين وثابتون على الإيمان ويشكلون عنصراً مهماً في التوازن الدولي. هدفهم رضاء الله ووظيفتهم إعلاء كلمة الله، فهم مجاهدون على الدوام في سبيل الله، لا يهمهم سخط الناس ولا لومهم بل يهتمون فقط بأداء مهمتهم على أحسن وجه. وهذا فضل من الله تعالى يختص به من يشاء.

ويستفاد من هذا التوجيه العام بأن وقائع الارتداد عن الدين لن تبقى منحصرة في الأمثلة التاريخية السابقة بل ستتكرر على مدار التاريخ في جميع الأقوام التي تأخذ مكانها في التاريخ، وأنـــهم سوف يُستبدلون بقوم يحبهم الله ويحبونه.

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]

يمكن تقييم هذه الآية من وجوه عديدة:

١– الكعبة في موضع القلب من هذه الأرض. وهي عمود نور يطوف حوله الإنس والجن من مركز الأرض حتى سدرة المنتهى. وفي كل آن وحين يشتاق للوصول إلى حرمها البلايين من الأرواح الطاهرة المرئية وغير المرئية. لذا يمكن القول من هذه الزاوية فقط بأن الكعبة مسقط سدرة المنتهى على الأرض. فكأن الله تعالى جعلها شارة تشير إلى الهدف مثلما تشير الضفيرة والشعيرة في البندقية(*) لذا نستطيع أن نقول بكل اطمئنان بأن وضع الكعبة كوضع وحدة مقياس، وأن وجود العديد من الأشياء ومنها الدنيا مبرمجة حسبها... أجل! فإن لم تكن الكعبة موجودة فقدت هذه الأشياء معانيها، لذا نرى في أحاديث نبوية عديدة بأن هدم الكعبة علامة من علامات القيامة.(١) ومعنى هذا هو: "إن انهدام الكعبة يعني انقطاع آصرة الأرض مع السماء. ولا معنى لوجود دنيا لا ترتبط بالسماء. وما دامت الدنيا قد فقدت المقياس الذي يوصلها إلى هدف وجودها، إذن كان لزاماً عليها أن تنمسح من مسرح الحياة. إذن فالكعبة بهويتها هذه هي الركن والمستند الوحيد لبقاء الدنيا وهي تؤدي بجانبها الملكوتي هذا مهمتها ووظيفتها هذه. أي لو فقدت الكعبة غاية وجودها في يوم من الأيام عادت ورجعت إلى أصلها. وأود هنا تقديم مشاهدة تؤيد هذه الحقيقة، وتعود هذه المشاهدة إلى قطب من مريدي الإمام الرباني فنراه يقول: "كنت أطوف بالكعبة، وفجأة شاهدتها وهي تتعالى نحو السماء... كانت تتعالى من جهة ومن جهة أخرى تشكو من

(*) الضفيرة والشعيرة: نتوءان فوق البندقية لتسهيل التصويب نحو الهدف. (المترجم)

(١) مسلم، الفتن وأشراط الساعة ٨.

عدم قيام الناس بوظيفة العبودية الحقة... أمسكت بطرف ستارها وتوسلت إليها أن ترجع" فهل رجعت بروحها وسرها وهل بقيت في مكانها أم لا؟ يصعب الإجابـــة على هذا الســـؤال دون وجود مشاهد من ذلك النمط والمستوى.

ولا أظن أن الوضع الحالي يختلف عن ذلك. ولكننا نأمل في اللطف الإلهي الواسع. ومن يدري فلعل الوضع الأليم الحالي للمؤمنين ينبع من تعرض الكعبة إلى مثل هذه الاستهانة وعدم التوقير!

٢– يستطيع الإنسان أن يعيش الإسلام في حياته الفردية والشخصية كذلك، ويمكن أن ينجح في أداء الفرائض المكلف بها، ولكن لا يمكن أن يكون مظهراً للألطاف الإلهية بالمعنى العام وأن يمثل هذا المظهر بالمعنى الكامل إلا بالجماعة. والكعبة في موقع قَيُّوم مثل هذا التجمع وتكوين الجماعات وصيانتها والمحافظة عليها، اعتباراً من توجه ملايين الناس إليها في الصلاة وانتهاءً إلى قيامها بجمع الملايين في الحج والعمرة فتكون وسيلة وواسطة لتمتين شعور الجماعة وتقويتها وإدامتها. ويجب ألاّ ننسى هنا حكمة كون الحج مؤتمراً عالمياً عاماً. أجل إن أداء الحج على وجهه الكامل يعد عقداً لمؤتمر عالمي للمسلمين. ولو كان للمسلمين هذا الشعور لكان من الممكن العثور على حلول لبعض مشاكل العالم الإسلامي. وإذا كان الحج لا يستطيع اليوم أداء هذا الدور فهذا ينبع من نقص الوعي عند المسلمين، والا فهناك مثل هذه الإمكانيات وهذه القدرة على الدوام في الحج. وهكذا يتبين أن الكعبة بامتلاكها هذا الوصف وهذه الميزة تعد قياماً للناس ومصدر قوة للناس واقتدار لهم.

٣– تعد الكعبة قياماً لكل مؤمن على حدة من ناحية قيامها بتقوية قواه المعنوية. لأن كل مؤمن متوجه للكعبة يرى توجه الملايين من الناس –ومن ضمنهم مئات الآلاف من الأولياء والأصفياء ومن الذين تفتحت قلوبـــهم

وعيونـــهم على الحقائق- حجة بالغة ضد الشبهات التي قد تحوك في صدره فيصل إلى الراحة النفسية ويطمئن قلبه. بل يستطيع الإنسان أن يسكت صوت النفس والشيطان في داخله الذي يوسوس في صدره بأن الكعبة لا تملك أي قدسية لأنـــها ليست سوى بناء من حجر وتراب. أجل! فهو يقوي إيمانه ويقول في نفسه إنه لو لم يكن للكعبة مثل هذه القدسية فهل كان في إمكانـــها أن تكون مركز جاذبية واهتمام لمئات الآلاف من كبار المرشدين المعنويين والعبقريين؟.

٤- وللكعبة -بوصفها قياماً للناس- علاقة وثيقة جداً بحركة الإحياء والتجديد أيضاً. ووحدة القياس لمعرفة مستوى تحقق حركة الإحياء هذه تتناسب طردياً مع فهمها لحقيقة الكعبة. فإن بلغ هذا الفهم الذروة في يوم من الأيام سيكون البعث والإحياء في الذروة أيضاً.

والخلاصة إن الكعبة كانت على الدوام نور العيون وشفاء الصدور ومنبع الحماسة والقوة. وبها حافظ المؤمنون على التناغم بين الدين والدنيا وقامت على الدوام بمهمة التوازن في قلوب المؤمنين. والذين توجهوا لله توجهوا بها إليه، وبها تتم فريضة الصلاة والحج. وهي وما حولها ملاذ الذين يبحثون عن طمأنينة القلب وسكونه. هي مؤنسة القلوب التي تئن من ألم الغربة، ومزيلة وحشتها. وفي الخط الموصول بين القلب وسدرة المنتهى هي المحراب وما وراء المحراب، وهي مجمع أفضل الأصوات وأغناها بالتضرع والدعاء الذي يكاد يسمع بأذن الروح من بنائها وأحجارها القائمة في أبرك بقعة على الأرض.

ندعو الله تعالى ألا يحرمنا من وصايتها علينا.

سورة الأنعام

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]

ولادة الإسلام ورسالته في مكة ثم انتشاره في أرجاء العالم بعد ذلك مبنية على حكم عديدة. وكما يمكن تقييم الآية الكريمة ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ من هذه الزاوية أيضاً، يمكن تقييمها أيضاً من الناحية الإنتروبولوجية والجغرافية والتاريخية والإنسانية ومن ناحية المكان واللغة وسائر الأبعاد الأخرى للمسألة. أجل! إن الله تعالى هو أعلم بمن يختاره لنبوته ولرسالته، وفي أي مجتمع يظهر رسوله. كما أنه هو الأعلم متى يظهر رسالته وفي ضمن أي جو من الصراع الدولي والديني والإنساني وبعد بلوغ هذا الصراع أي مستوى يرسل رسولاً جديداً وديناً جديداً. والآن لنتفحص هذه الأمور:

١- البعد الإنساني للرسالة:

تشير هذه الآية إلى أن الله تعالى هو الأعلم بالرسول الذي يختاره ويودع إليه أمانة تبليغ هذه الرسالة الإلهية، ولمن يتم توجيه هذه الرسالة. وفي العهد النبوي كان هناك من يظن أن وليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي أولى بالرسالة وأنسب. وقد ذكر القرآن رأي هؤلاء في هذين الشخصين في آية أخرى فقال: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣١). ورد القرآن عليهم فقال ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الزخرف: ٣٢). ولا شك أن قضية خطيرة جداً وأمراً خطيراً جداً مثل أمر النبوة لا يمكن تركه لرأي هذا أو ذاك. فاذا كان الله تعالى يعلم -وهو يعلم دون شك- اللطائف الإنسانية الموجودة في روح الإنسان وقلبه

ويهدف إلى إحيـــاء هذه اللطائف فيه فهو الأدرى بلاشك بانسب شخص للقيام بـــهذه المهمة. لذا فالشخص الذي يشرفه الله تعالى بالرســـالة هو أنسب الأشخاص.

إن قيام الوليد بن المغيرة وغيره باستصغار نبينا ﷺ والنظر إليه باعتباره غير أهل للرسالة يُعدّ اقترافاً لجرم كبير، وهم بـــهذا العمل هبطوا في نظر الله تعالى إلى أوطأ درجة ومنـــزلة واحقرها. والله تعالى يخبرنا بالهوان والصغار الذي سيصيب هؤلاء في سياق الآية نفسها ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

والله تعالى يقول:﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنْ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنْ النَّاسِ﴾ (الحج: ٧٥) فما علينا إلا توقير واحترام من اصطفاه الله تعالى واطاعته. وإلا فابداء أي تذمر ضد من اختاره الله يهبط بمنـــزلة ذلك الإنسان ويجعله حقيراً ومهاناً، ويكون محروماً من الفيوضات والبركات التي يتمتع بها الأنبياء والأولياء والأصفياء والمقربون.

أجل! مثل هذا الشخص -مهما كانت منـــزلته- سيكون حبيس الهوان والصغار، ويحرم من كل الفيوضات الربانية.

ثم أن عظمة رسولنا ﷺ ولياقته وقابلياته معروفة ومسلم بـــها في جميع العصور والعهود ومن قبل الجميع. ومع أن الكتب المنـــزلة القديمة حرفت، فإن علماء أجلاء من أمثال العلامة رحمة الله الهندي والعلامة الجسر وجدوا في هذه الكتب أربع عشرة ومئة بشارة ونصاً حول مجئ هذا الرسول الكريم. أجل! فقد أجمع الأنبياء -اعتباراً من داود وسليمان وموسى عليهم السلام وانتهاءً إلى يحيى وزكريا وعيسى عليهم السلام- على البشارة بقدوم هذا الرسول الكريم، واخبروا أممهم وأقوامهم بأنه سيكون جامعاً لجميع فضائل الأنبياء عليهم السلام. وبـــهذا الاعتبار فالرســـول ﷺ هو صاحب "مقام الجمع".

أجل!... لقد تجلت فيه وحدة الأنبياء العظام، أي أن الرسول ﷺ كان برسالته العالمية الشـــاملة جامعاً لأفكار جميع الأنبياء العظام للإنسانية ورسالاتهم. لـــذا فهو يعد من جهة تأسيس جميع قضايا الإيمان الضرورية مؤسساً، ويعد من جهة تصحيحه للتحريفات مصححاً، ويعد مجدداً في الأمور التي احتاجت للتجديد والتكميل، لذا فلا رســـول ولا نبي بعده. لأن قضايا العقيدة وصلت إلى وحدة متكاملة، فمن يأتي بعده سيمزق هذه الوحدة المتكاملة. لذا فهو الرســـول والنبي الأخير، أي هو خاتم الأنبياء والمرسلين. لأن الإنسانية وصلت بـــه في الفكر والشعور وفي الدين والعقيدة وفي الإدارة والسلوك والطريق إلى جميع مفاتيح المغاليق في العقيدة والفكر والحياة بحيث لم تبق هناك حاجة لرسالة جديدة. لذا كان على الإنسانية جمعاء تنظيم جميع قضاياها الحيوية في ضوء هذه الرســـالة الأخيرة وعلى هداها.

والجانب الآخر لهذا الموضوع هو أن نبوة محمد ﷺ ورسالته كانت قبل جميع الأنبياء والمرسلين. فقد ورد في أحد الأحاديث: "أول ما خلق الله نوري"،[1] وفي حديث آخر "كنت نبياً وآدم منجدل في طينته"[2] أي أن تخطيط إرساله نبياً كان قبل الجميع، وقد تناول المتصوفة هذا الأمر تحت عنوان "الحقيقة الأحمدية" ووقفوا عندها كثيراً. وهم يرون أن الحقيقة الأحمدية هي في الوقت نفسه حقيقة الكون، وأرادوا به اظهار عظمة الرسول ﷺ وانه كان مظهراً لأعظم رسالة.

من المفيد هنا أن نقف لحظة أمام هذا الأمر الآتي: إن الرسول ﷺ وصل إلى مرتبة لم يصل إليها أحد. إذا أخذنا بنظر الاعتبار النور الذي نشره من ناحية الكم ومن ناحية الكيف أيضاً، ولا يستطيع أحد الوصول إليه. وهذا

---

(١) كشف الخفاء للعجلوني، ٢٦٥/١.

(٢) كشف الخفاء للعجلوني، ١٢٩/٢-١٣٠، ١٣٢.

من الناحية العملية أكبر دليل وبرهان على عظمة الرسالة التي حملها ونشرها.

ذلك لأن مئات الأديان كالبوذية والبراهمية والطوطمية وغيرها وحتى الأديان السماوية كالمسيحية واليهودية قد أصابـــها التحريف والتبديل بنسبة ما باستثناء الإسلام. قد تكون المسيحية اليوم أكثر انتشاراً من الإسلام، غير أنه من الصعب اليوم العثور على المسيحية الحقيقية حسبما جاء بـــها السيد المسيح عليه السلام، ومن الصعب اليوم أن تفهم المسيحية التي غرقت في لجة تأويلات وتفسيرات معقدة. ولو لم نطلع في القرآن الكريم على الهوية الحقيقية للمسيح عليه السلام، لما كان بامكاننا قبوله بالشكل المقدم في الكتاب المقدس في خضم التناقضات العديدة الموجودة حوله. لأن عيسى عليه السلام الذي يظهر أمامنا في انجيل يوحنا وفي إنجيل متى ولوقا لا يختلف في شيء عن الله تعالى "حاشا لله"، فهو على العرش بجانب الله ويتقاسم معه الربوبية، ولا تتخلص الإنسانية من خطيئتها المتوارثة -حسب زعمهم- ولا تستطيع أن تدخل الجنة التي فقدتها إلا بفضله. أجل!... إن ماهية المسيح عليه السلام معقدة ومضطربة وبعيدة عن التصديق إلى هذه الدرجة في النصوص الحالية للكتاب المقدس. ومثل جميع الحقائق الأخرى، فلم نعرف حقيقة المسيح عليه السلام إلا بفضل رسالة نبينا ﷺ....؟

٢- البعد المكاني للرسالة:

﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، بنشأة رسولنا ﷺ في مكة حكم عديدة أيضاً من ناحية الرسالة. فمعلوم أن مكة المكرمة تحيط بسرة الأرض. والكعبة ســـرة الأرض وقلب الوجود. ويقول بعض الأولياء من أرباب الكشف أن الكعبة والرســـول ﷺ خلقا معاً، وإن حقيقة الكعبة والحقيقة الأحمدية مترافقتان ومتقارنتان. ففي نـــزول الحقيقة الأحمدية اخطأ بعض الأولياء عندما قالوا إن حقيقة الكعبة متقدمة على الحقيقة الأحمدية. بينما الحقيقة الأحمدية لم تتأخر عن حقيقة الكعبة ابداً.. وهاتان الحقيقتان وجهان لوحدة واحدة. ولو

أريد لأي دين عالمي أن يمثل في الأرض لكانت مكة المكرمة -التي نشأ فيها الرسول ﷺ- هي أفضل مكان له. ثم ألا يصفها القرآن الكريم بأنـــها "أم القرى"؟ أجل إنـــها أم المدن وأم القرى وقد عملت كحاضنة للرسول ﷺ في نشأته، بل غذته كما يغذي رحم الأم الجنين. إن النبي موسى عليه السلام لم يتلق رسالته إلى بني إسرائيل من "الأيكة"، بل من الأرض المباركة طور سيناء. وكما رنّت هذه الأرض بالدين الموسوي، وكما تلقى موسى عليه السلام رسالته الأولى إلى بني إسرائيل من هذه الأرض حسب مستواهم، كذلك ما كان لرسالة القرآن العالمية الشاملة في الزمان والمكان أن تنطلق إلا من البلدة التي توجد فيها الكعبة... وهكذا كان.

والجانب الآخر من المسألة هو أن مكة كانت بلدة استراتيجية من وجوه عدة، إذ كانت ملتقى عدة دول آنذاك... كانت كالساحل الذي تضربه الأمواج تتكسر عليه. كما كانت مكة والمدينة مهداً لمدَنيات قديمة مثل مدَنية سبأ وحضرموت وصنعاء، ويقال إن المسافر الذي كان يخرج من المدينة متوجهاً نحو حضرموت كان يسافر في ظلال وارفة ولا تمسه الشمس حتى وصوله إلى حضرموت. وألا يذكر القرآن هذه الجنان ويصفها بجنة الأرض أو جنة عدن؟. وهكذا كانت مكة والمدينة مهدين لمثل هذه الحضارات القديمة كما كانتا على علاقة بمدنية بيزنطة في روما ومدنية الساسانيين في إيران. وقد التقت ثقافة روما بواسطة مدينة انطاكيا، مع ثقافة مصر القديمة "أنتجت" أو "أنجبت" مدينة الإسكندرية التاريخية.. كانت روما تعد آنذاك القوة العالمية العظمى، وقد نـــزلت سورة "الروم" في حق القوى العظمى في تلك الأيام. وفي سنوات الولادة أسست الإمبراطورية الساسانية حكمها في اليمن لفترة معينة. وقامت أحياناً بتحريض اليمن ضد أهل مكة. ولم يكن مجئ جيش أصحاب الفيل إلى مكة لتخريبها إلا نتيجة تحريض الساسانيين ولكن الله تعالى لم يسمح أن يصيب مكة أي ضرر، وأبقاها بلدة آمنة.

لذا يمكن القول من هذه الزاوية بأن الجزيرة العربية كانت أرضاً ملائمة لتقديم رسالة الإسلام العالمية. أجل إن رسالة تخاطب العالم أجمع يجب أن تنبثق من مكان بحيث ما أن تظهر هذه الرسالة للوجود حتى يكون بالإمكان نشرها في العالم. وكانت مكة والمدينة صالحة من الناحية الإستراتيجية لهذا الأمر. فما أن وقفت دعوة هذه الرسالة على قدميها في هذه الأرض المباركة حتى واجهت هاتين الحضارتين وهاتين الثقافتين. ثم بواسطة هاتين الحضارتين وهاتين الثقافتين استطاعت هذه الرسالة الوصول إلى أمم وشعوب عديدة. فبواسطة إحداها وصلت إلى أبواب اوروبا، وبواسطة الأخرى وصلت إلى أقاصي آسيا لكي تؤدي مهمتها العالمية الشاملة.

كانت مكة آنذاك مركزاً تجارياً مهماً يأتي إليها التجار من مختلف البلدان للاستيراد وللتصدير وكانت مكة مدينة صالحة للتجارة صيفاً وشتاءً، وكما جاء في القرآن فإن قوافل التجارة كانت تسير إلى الشام وإلى اليمن من مكة، حتى إن مكة اصبحت قلب التجارة في تلك المنطقة، حتى إن المسلمين عندما هاجروا من مكة إلى المدينة نافسوا تجار اليهود الذين كانوا يحتكرون التجارة في المدينة، وبعد فترة عجز التجار اليهود عن منافستهم. وهذا يرينا أن التجار المكيين كانوا بفضل تمرسهم بالتجارة الدولية على علم بالبنية الاجتماعية والثقافية للدول العظمى. ونعرف اليوم بشكل أفضل بأن فهم الطابع الاجتماعي والخصائص الاجتماعية العامة لأمة والاطلاع على اهتماماتها، ومعرفة بنيتها الاقتصادية من أهم الأسس في إقامة العلاقات معها. كان أهل مكة في ذلك العهد على علم بثقافة وعادات الأمم المجاورة بفضل العلاقات التجارية التي اقاموها معها. وكان هذا الأمر ملائماً لتشكيل أساس مناسب للدعوة إلى الرسالة التي ظهرت هناك فيما بعد. أجل!... إن ظهور الرسول محمد ﷺ برسالته العالمية الشاملة في ذلك المكان المبارك، في مكة المكرمة أمر هام جداً. ولو قمت بتغيير هذا المكان أي لو أخذت هذه الرسالة من مكة ومن المدينة ونقلتها إلى الطائف أو إلى الرياض أو إلى عمان

لتغيرت موازين عديدة وخسرنا جميع المميزات التي كانت تتميز بها مكة، وهذا يعني أعاقة نمو هذه الرسالة وانتشارها. أجل!... إن مكة والمدينة كانتا مدينتين ضروريتين للدعوة وللرسالة.

ويجب أن نذكر أيضاً إن ظهور هذه الرسالة في جو صحراوي ملتهب يعد شيئاً إيجابياً. فمثل هذه الصحارى بلعت غزاة عديدين مثل نابليون وهتلر وقواد الرومان وغلبتهم. أما المجاهدون المسلمون الأوائل الذين كانوا قد تعودوا على مشاق هذا المناخ فقد انتصروا في كل معركة دخلوها. بينما كان الآخرون يتقدمون بصعوبة في هذه الربوع، أما المجاهدون المسلمون فقد كانوا -متأقلمين مع هذه الطبيعة المناخية والجغرافية- يستطيعون التقدم بكل سهولة وبكل سرعة كما كانوا يملكون تفوقاً لوجستيكياً. فمثلاً لو أن جيشاً متعوداً على مناخ تركيا أو مناخ الشام دخل معركة تبوك لكان من المحتمل أن يكون التلف مصير مثل هذا الجيش.

وهناك مسألة أخرى، وهي أن جزيرة العرب لما كانت صحراء قاحلة لم تكن الدول الكبرى تطمع فيها، كما لم يكن البترول ولا الثروات الأخرى معروفة آنذاك. وكانت نباتاتها وأشجارها وأراضيها الخضراء قليلة جداً. لذا لم تكن مكة ولا المدينة -خارج أمور التجارة- مدناً يطمع فيها الآخرون أو يحبون استكشافها. لذا بقيتا مصونتين من احتلال الدول الأخرى. ومع أن الدول الكبرى آنذاك كانت تبعث من حين لآخر بعض الولاة إلى هذه الأماكن المباركة. ولكن هذه الدول كانت تعلم أنه لا يوجد لها ما تنتفع به في هذه الأماكن. لذا لم تنفذ ثقافات هذه الدول إلى هنا و لم تقم بإفساد فطرة الناس فيها. لذا وجد الإسلام الفرصة لكي يقوم بنشر عقائده الصافية والمصانة من تأثير المدنيات والثقافات الأخرى، في ربوع العالم بأسره. ولو حدث العكس، أي لو تعرضت مكة والمدينة لاحتلال فكري وثقافي اجنبي، لصادفت رسالة الإسلام صعوبات اضافية. لقد وجدت الثقافة الإسلامية في هذا المركز

الأمين مهدها مثلما يجد المطر أرضه الصالحة التي تتفجر منها الينابيع الثرة التي لا تستطيع الدلاء تكديرها. لذا لم تستطع لا عقيدة الساسانيين ولا عقيدة روما الوثنية تكدير النبع الصافي لهذه الرسالة، فحسب مثل "لا تكدره الدلاء" لم تكن الدلاء المدلاة إلى هذا النبع الصافي -المستند إلى الفيض الأقدس وإلى الوحي والمحفوظ تحت أمن الجناح الألهي- قادرة على تكديره.

وهكذا فإن مكة الحائزة على صفة مميزة وهي كونها بمثابة مسقط لسدرة المنتهى،[1] وكذلك بسبب موقعها الجغرافي المتميز كانت تملك أهمية كبيرة كمكان صالح للرسالة. وانتقلت أمانة حمل هذه الرسالة فيما بعد إلى مدن أخرى بعد تغير الموازنات الدولية والخصائص الاستراتيجية، ولكننا ننظر الآن إلى فترة ظهور الرسالة، وهي الفترة التي تشير إليها الآية الكريمة. لأننا نعلم أن مدينة بغداد والشام واستانبول اصبحت في عهود مختلفة مركزاً لانتشار الإسلام زمنا طويلاً. وحتى في العهد الذي كانت فيه استانبول تمثل الرسالة كانت مكة والمدينة محافظتين على مكانتيهما المباركتين كقرة عين للعالم الإسلامي وتاجاً على رأسه.

٣- البعد اللغوي للرسالة:

يأتي في عدة آيات موضوع نـــزول القرآن باللغة العربية. وهذا يبين كمال اللغة العربية ولاسيما في ذلك العهد. أجل!.. كانت اللغة العربية تعيش عهدها الذهبي الزاهر في ذلك العهد. إن لكل لغة عهدها الذهبي، فمثلاً كان عهد الملكة اليزابيث والكاتب شـــكسبير العهد الزاهر للغة الانجليزية والظاهر أنـــهم لم يقعوا في اخطاء في موضوع اللغة مثل ما وقعنا نحن. كما أن الانفتاح على علم التكنولوجيا وعلى الثقافات المختلفة يكسب

---

(١) عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: "... ثم البيت المعمور في السماء يقال له الضراح وهو على مثل بيت الله الحرام، لو سقط لسقط عليه..." المعجم الكبير للطبراني ٤١٧/١١؛ شعب الإيمان للبيهقي ٤٣٧/٣؛ المصنف لعبد الرزاق، ٢٨/٥.

اللغة غنى وثروة. وقد نظر الانجليز على الدوام باحترام وتوقير إلى هذا العهد. ويعد العهد الذي نـــزل فيه القرآن العهد الذهبي للغة العربية إلى درجة أن أبسط بيان آنذاك كان يصاغ في آية من الروعة. لقد نـــزل القرآن بلغة قريش ولكنه كان مفتوحاً أيضاً على لهجات القبائل الأخرى كذلك.

لقد بحث العديدون وكتبوا حول الناحية الأدبية للقرآن الكريم، وقد ظهر عباقرة عديدون في هذا الموضوع من أمثال عبدالقاهر الجرجاني والسكاكي والزمخشري في الماضي وحتى مصطفى صادق الرافعي وسيد قطب في عصرنا الحالي والعلامة سعيد النورسي صاحب كتاب "إشارات الإعجاز".

لقد تحدى القرآن معارضيه منذ نـــزوله وحتى اليوم ببلاغته وإعجازه، فكم من أديب وبليغ حاول الإتيان بمثله أو تقليده، ولكنهم خابوا وفشلوا. وكم من محب له زين مقالاته واشعاره بآياته وببليغ بيانه. ولكن لم يكن بمقدور أحد الوصول، أو الاقتراب من قمته، ولا يزال القرآن حتى اليوم – وهو يقرأ من قبل البلايين– يهمس لنا وهو يبتسم من سماء الوحي باستحالة الوصول إلى بلاغة اسلوبه وبيانه. وفي عهد الجاهلية كم من شاعر وأديب استسلم للقرآن الكريم عند سماعه له مرة واحدة، بل إن الوليد بن المغيرة – على الرغم من عداوته للإسلام– بُهت أمام بلاغة القرآن.

كما سحرت بلاغة القرآن اعدى أعداء الإسلام من أمثال عتبة بن أبي ربيعة وأبي جهل، و لم يجرأ أحد على تحديه. انظروا مثلاً إلى عمر بن الخطاب ﷺ الذي كان مطلعاً على الأدب الجاهلي وعلى الشعر الجاهلي إلى درجة أنه قال مرة بانه يستطيع أن يقرأ ألف بيت من شعر العرب.. هذا العقل الكبير بُهِتَ وسُحِر عندما استمع إلى سورة طه فاستسلم للقرآن مع أنه كان قد قرر قتل الرسول ﷺ.

وحسب بعض الروايات والنقول لو اوقفت في ذلك العهد أي شخص ماراً في درب من دروب مكة وطلبت منه قراءة بعض أبيات من الشعر

لاستطاع أن يقرأ لك شعراً طوال أربع أو خمس ساعات... كان هذا هو مبلغ انتشار الأدب بينهم. وعندما نـــزل القرآن، نـــزل بهذه اللغة الغنية. وقد نـــزل بآيات يستطيع البدوي الإعتيادي فهمها، كما يستطيع الشاعر الفحل تذوق جمالها الأدبي. أجل!... فكما كان البدوي يحدو بايات من القرآن وهو يسوقُ أبله، كان أفصح البلغاء والأدباء يقرأونه بلذة ونشوة روحية وأدبية كبيرة.

هذا هو ضمن ما تعنيه آية ﴿اللهُ أعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فهو الأعلم بأي لغة ينـــزل هذه الرسالة. لقد نـــزل القرآن بلغة تُمكِّن القانوني من مراجعته من زاوية علم القانون فيجد فيه بغيته بسهولة، ويستطيع الإداري والمختص بعلم الكلام والمفسر مراجعته كل في ساحة اختصاصه فيجد فيه كل دقائق ساحة علمه واختصاصه ويستفيد منه. مع أنه من المعلوم أن لغة القانون شيء ولغة التفسير ولغة علم الكلام ولغة الأدب ولغة العقائد شيء آخر، وهذه اللغات يختلف بعضها عن البعض الآخر. ولكن القرآن يراعي جميع دقائق اللغة في جميع هذه الساحات المختلفة ولا يخل بأي قاعدة أو أساس فيها. وهاكم التاريخ الإسلامي وهاكم العلوم الشرعية وهاكم المدارس الفقهية "القانونية" المختلفة، وهاكم العشرات من المدارس الأدبية وهاكم آلاف المحققين والمدققين والمفسرين الذين انجبتهم هذه المدارس المختلفة... كل هؤلاء على آلاف مشاربهم وأذواقهم عدوا القرآن أهم مرجع لهم فكتبوا الآلاف من الكتب على ضوئه.

إذن فالله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته... لمن يعطي هذه الرسالة، وفي أي بلد وبأي لغة ولا نقول أن الله أعلم بهذا من ناحية النسبة، بل نقول هذا ونعني به أنه العليم الوحيد، ولا يكون لأي أحد آخر أي نصيب من هذا العلم، ولا يملك أي أحد آخر مثل هذا التقدير، ولا يحقق له هذا أبداً، ومن يدعي هذا يكون له الخزي في الدنيا وفي الآخرة.